الدستور
الأمة مصدر السلطات

قصة الوحدة المصرية السورية – الإنفصال (3 من 3)

د. رءوف عباس

4 مارس 1998

وقع إنقلاب الوحدة مساء 28 سبتمبر 1961، واستولى قادته على مراكز التحكم العسكرية والاعلامية فى دمشق، وأصدروا بيانهم الأول، وساوموا المشير عبد الحكيم عامر الذى أصبح فى قبضتهم، بما يكشف عن سعيهم للعودة إلى سياسة إملاء الشروط التى اتبعها العسكر مع الساسة منذ استقلال سورية، وهو ما رفض عبد الناصر أثناء متابعته لما يجرى فى دمشق من خلال عرضه عمليات أقامها لادارة الأزمة بمبنى الاذاعة المصرية بالقاهرة، لأن طريق التنازلات لانهاية له، ويجعل إرتباط سورية بمصر إسميا، وبدأت إشارات ترد من حلب حول رفض وحدات الجيش بها تأييد الانقلاب وتحركهم لضربه، فأرسل عبد الناصر تعزيزات مصرية لإعادة الأمور إلى نصابها، ولكنه ما لبث أن قرر عودة عبد الحكيم عامر إلى القاهرة على الفورإذا إستطاع إلى ذلك سبيلا، وإنهاء جميع العمليات العسكرية ووقف إرسال التعزيزات حتى لا يكون ثمن الحفاظ على دولة الوحدة إراقة الدماء المصرية السورية.

تفجرت مظاهرات الطلاب فى القاهرة بصورة تلقائية يومى 29 و 30 سبتمبر، (وكنت أحد من شاركوا فيها)، كان جيل الشباب مشحونا بالأمل فى الوحدة باعتبارها الطريق الأمثل لتحرير فلسطين، وبدا الإنفصال بمثابة تحويل الأمل إلى سراب. زحفت جموع الشباب من كل الكليات صوب جامعة القاهرة، وانطلقت الشعارات التى تدعو إلى التمسك بالوحدة، وتصب اللعنات على أعدائها، والاصرار على الحديث مع الرئيس. ويبدو أن عبد الناصر كان حريصا على تهدئة الشباب بنفسه، ولعله وجد بعض السلوى فى حماس ذلك الجيل الذى يؤمن بالعروبة، حتى يؤكد للذين يحاولون إنتهاز الأزمة لضرب النظام أنه لا زال يمسك بزمام الأمور، وأن النظام يستمد شرعيته من التعبير عن أمل الجماهير، ومن تمتعه بتأييدها، ففوجئ هذا الحشد الهائل من الشباب بعد الناصر يبرز من داخل مبنى إدارة الجامعة ويقف على درج المدخل، ووجدت نفسى على بعد مالا يزيد على ثلاثة أمتار من مكانه، واستمعت إليه يخطب بلا ميكروفون وقد عم السكون المكان، والشباب يترقب بأعصاب مشدودة ما قد يأتى به الغد، ولا يقطع السكون إلا هتافات مدوية من آن لآخر بحياة الوحدة (التى إحتضرت) وبسقوط الرجعية العربية وخاصة الملك حسين وسقوط الامبريالية، كلما ورد فى خطاب الزعيم ما يشير إلى مؤامرات هؤلاء واولئك، وقد أعلن بوضوح أنه لايقبل إراقة الدم العربى من أجل الوحدة، ولكنه آن الأوان لمواجهة الرجعية العربية بدلا من مهادنتها، والتصدى للاستعمار وأعوانه.

وكان يوم الخامس من أكتوبر مأتما حقيقيا عند جيل الشباب، فقد أعلن جمال عبد الناصر بيانا ذكر فيه ما أعلنه فى حرم جامعة القاهرة قبل أيام من رفض التدخل العسكرى كسبيل للحفاظ على الوحدة، لأن العدو الرئيسى الذى يجب أن نتفرغ لمواجهته هو الاستعمار وإسرائيل، وأبدى إستعداده لقبول لجنة تحقيق من الجامعة العربية فى الإفتراءات التى يعلنها الإنفصاليون من راديو دمشق، على أن تعلن نتيجة التحقيق على الأمة، وختم حديثه بصوت متهدج قائلا:"انه ليس من المحتم أن تبقى سورية جزءا من الجمهورية العربية المتحدة، ولكن من المحتم أن تبقى سورية،" وأعلن عن استمرار مصر رافعة لعلم الجمهورية العربية المتحدة، مرددة نشيدها، حاملة اسمها.

كانت أحداث الأيام السبعة بمثابة كابوس ثقيل عاشه الشباب المصرى من الطلاب، ومما يلفت النظر أنهم عاشوه وحدهم، أما غيرهم فقد تعاملوا مع الحدث بقدر كبير من اللامبالاه، بل حدث عند المصريين نوع من التوجس من العرب والعروبة، وخاصة ما تناقله الناس من قصص الإهانات التى لحقت بالمصريين الذين خدموا فى سوريةعلى يد النظام الإنفصالى، وما لقيه من تأييد قيادات البعث شركاء الأمس فى الوحدة – ومباركة "المواطن العربى الأول" شكرى القوتلى للنظام الجديد. لم يكن المصريون قد تهيأوا بعد لفكرة الاندماج فى كيان عربى، فجاء وقع الأحداث صدمة كبرى زادت الكثيرين منهم نفورا من العروبة، وخاصة الجيل الذى كان يعيش على ذكريات القومية المصرية، ويضيق بالاسم الجديد للدولة الذى غيب إسم مصر، وكان الأقباط أكثر المصريين نفورا من الاندماج فى كيان عربى كبير. وانعكس ذلك كله فى سيل جارف من الشائعات كان مثارا لشعور عام بالمرارة والإحباط.

وإذا كان المصريون قد أصابهم الغم والحزن، فإن أنظمة الحكم فى الأردن والسعودية والعراق ولبنان وتركيا وإيران لم تخف سعادتها بالإنفصال، وكذلك الإتحاد السوفيتى، أما الولايات المتحدة الأمريكية ودول حلف الأطلنطى الدائرة فى فلكها فقد فضلت أن ترقب الموقف عن كثب إنتظارا لما قد يسفر عنه، ونصحت أمريكا حلفائها وأصدقائها فى المنطقة بالتريث وعدم التسرع فى الإعتراف بالنظام الجديد.

لم يكن ما حدث فى سورية مفاجئا للولايات المتحدة الأمريكية، إذ تحفل الوثائق الأمريكية بفيض زاخر من التقارير عن الأزمة الإقتصادية فى سورية وما سببه من ضيق وسخط قطاعات كبيرة من السوريين، ومدلولات ضيق البيروقراطية السورية والعسكريين السوريين بمزاحمة المصريين لهم فى الادارة والجيش. وتنوعت مصادر المعلومات التى إعتمدت عليها التقارير من رؤساء الطوائف التقليدية، إلى كبار أصحاب رأس المال، إلى بعض السياسيين من رجال الأحزاب المنحلة، إلى بعض عناصر التكنوقراط المصريين الذين ذهبوا للخدمة فى سورية فى ظل دولة الوحدة دون أن يؤمنوا إيمانا حقيقيا بالعروبة. وكانت القنصلية الأمريكية بدمشق وحلب من أنشط ممراكز جمع المعلومات. وبدأت التقارير ترى شررا وسط الرماد بعد صدور قرارات يوليو الاشتراكية.

والحق أن أمريكا –على عكس ما صورته لنا أجهزة الاعلام عندئذ – كانت تعيد بناء الجسور مع عبد الناصر، استجابة لمأأبداه من رغبة فى هذا الصدد بعد قيام الوحدة، فبدأت إتصالات على الصعيد غير الرسمى من خلال مصطفى أمين، ومحمد حسنين هيكل، والسفير اللبنانى نديم دمشقية، وزادت الاتصالات من خلال القنوات الدبلوماسية بعد الصدام مع عبد الكريم قاسم وخروشوف حول النشاط الشيوعى فى المنطقة، ونكبة الشيوعيين المصريين والسوريين (على نحو ما أشرنا من قبل)، فحدث نوع من التقارب النفسى بين الجمهورية العربية المتحدة وأمريكا، إتخذ أبعادا إقتصادية فى مجالات المعونة، وتشجيع الحافاء الأوربيين على مساعدة مصر فى خطة التنمية، بل والاتجاه إلى المعاونة فى خطة التنمية فى سورية، وتبلغ الذروة فى دراسة تمويل المرحلة الثانية من بناء السدالعالى بتمويل أوربى (ألمانى – بريطانى).

ولا غرابة فى ذلك، فالحفاظ على علاقة طيبة مع عبد الناصر كانت أفضل من معاداته، فهو يتحكم فى مسار خطوط أنابيب النفط عبر سورية، كما يتحكم فى مروره عبر قناة السويس، فالتعاون معه أفضل بالنسبة لمصالح الغرب فى المنطقة. تبقى مشكلة إسرائيل التى أصبح أمنها جزءا من الأمن القومى الأمريكى بعد 1956 على وجه التحديد. وقد برهن عبد الناصر على عدم الاستعداد لمواجهة معها، وخاصة أنه كان لديه ما يشغله: كإعادة ترتيب بيت الوحدة، والصراع مع عراق عبد الكريم قاسم، والتصدى لمحاولات الاتحاد السوفيتى توريط الجمهوية العربية المتحدة فى علاقة غير متكافئة تقود إلى التبعية. وهكذا كانت سنوات الوحدة فترة راحة واطمئنان عند اسرائيل، وأصدقاء الغرب بالمنطقة. ومن هنا جاء حرص الغرب على استمرار الصراع بين عراق عبد الكريم قاسم والجمهورية العربية المتحدة عن طريق تقديم بريطانيا للمساعدات لنظام عبد الكريم قاسم وخاصة السلاح تشجيعا له على موازنة النفوذ الشيوعى الغربى من ناحية، وعلى المضى فى سياسته المعادية للجمهورية العربية المتحدة من ناحية أخرى.

فى عشية وقوع إنقلاب الإنفصال، صدرت وثيقتان أمريكيتان سريتان إحداهما من الخارجية الأمريكية إلى السفارات العاملة فى الشرق الأوسط تحذر من التورط فى أى تصرف مؤيد للانقلاب "لأن سقوط الجمهورية العربية المتحدة ليس من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية" والوثيقة الثانية كانت تقدير موقف من إعداد المخابرات المركزية إنتهت فيه إلى أن "بقاء الجمهورية العربية المتحدة ضرورى للحفاظ على المصالح الأمريكية ومنع التغلغل الشيوعى فى المنطقة".

وقد وضعت هذه السياسة موضع التنفيذ منذ الوهلة الأولى، فالتقى السفير الأمريكى بعمان بالملك حسين ست مرات فى 28، 29 سبتمبر 1961، كان الملك يستدعى السفير فى كل مرة طالبا موافقة بلاده على الإعتراف الفورى بالإنقلاب وعلى أن يحرك الأردن قواته على الحدود السورية لدعم الانقلاب، وكان السفير فى كل مرة يحذر الملك من خطورة التسرع بالاعتراف، ومن مغبة حشد القوات. والتقارير التى كان يرسلها السفير الأمريكى بعمان إلى حكومته بين ساعة وأخرى تعكس لهفة الملك حسين، وحرصه على تمزيق أوصال دولة الوحدة، حتى أنه ضرب بنصائح السفير الأمريكى عرض الحائط وسارع بالإعتراف بحكومة الإنقلاب، وحشد قواته على الحدود السورية دعما له.

وجاء إعتراف الإتحاد السوفيتى بحكومة الانفصال فى أعقاب إعتراف الأردن، لطمة قوية لعبد الناصر لم يخف التعبير عنها، عندما قابله السفير الأمريكى بالقاهرة بعد بيان الخامس من أكتوبر الذى أعلن فيه حرصه على بقاء سورية، ليبلغه أن حكومة بلاده تدرس الإعتراف بالنظام الجديد فى سورية على ضوء مصالحها، فأعرب عبد الناصر عن شكره لهذا الحرص من جانب الولايات المتحدة على مراعاة مشاعره، "على حين سارع السوفيت بالاعتراف دون التشاور معنا". وفعل بقية سفراء حلف الأطلنطى نفس الشئ قبل إعلان إعتراف بلادهم بحكومة الانفصال.

وبتوالى إعتراف الدول بالنظام الجديد، طويت صفحة من صفحات التاريخ العربى المعاصر، حفلت بالأحداث والصراعات، فلا شك أن قيام الوحدة، كان مشجعا للضباط الأحرار العراقيين على الاطاحة بالحكم الملكى فى ثورة دموية لتقوم على أنقاضها الجمهورية، وما ترتب على ذلك من خشية بقية الجيران من إمتداد الثورة إلى أراضيهم فكان إستنجاد الأردن بالقوات البريطانية، واستنجاد لبنان بالقوات الأمريكية، ولم تنسحب هذه القوات إلا بعد ما قدم عبد الناصر تعهدات (غير معلنة) بعدم التدخل فى البلدين، ثم مالبثت الحرب الباردة العربية أن تأججت بين نظام عبد الكريم قاسم ونظام عبد الناصر وما تبع ذلك من أزمة بين الجمهورية العربية المتحدة والسوفييت.

كانت الطريقة الارتجالية التى تمت بها الوحدة، وعدم نضج الوعى بالعروبة عند المصريين، والسياسات التى صيغت لدولة الوحدة لا تبشر باستمرار الارتباط بين مصر وسورية، كما أن الواقع العربى المهلهل كان مسؤولا بدوره عن تلك النهاية المأساوية للوحدة، ولا يبقى من التجربة إلا ما كان يمكن أن نتعلمه منها من دروس قد يفيد منها عرب القرن الحادى والعشرين، لعلنا نعود إليه فى فرصة أخرى.